

الحديث ذو شجون للدكتور زكي مبارك

بلاء الناس بالناس — ملك الشط والنرائين — زيارة سياسية

بلاء الناس بالناس

تمرّ بنا لحظات كدر وغيظ لا يخلقها غير بلاء الناس بالناس ... نعم ، تمرّ بنا لحظات نحسد فيها سكان المغاور والكهوف ، ونتمنى عيش العزلة إلى آخر الزمان هذه الحرب صنعت ما صنعت بالأرزاق والأقوات ، ولم تترك بيتاً بلا متاعب معاشية ، فهل تأدب الناس وتذكروا أنهم يعيشون في أعوام حرب ؟ وهل تقع العيون على ناس تشهد ملابسهم بأنهم يعانون أزمت الحرب ؟

قيل إن المال كثر وفاض ، فمبند من كثر المال وفاض ؟ لم يكثر إلا عند التجار . وكثرة المال عند التجار مفسدة معاشية لا يدرك خطرها إلا الأقلون ، وهي ناشئة عن بلاء الناس بالناس ... ولكن كيف ؟

الموظف المحدود الراتب ، والمالك المحدود الإرادة ، لا يريد هذا أو ذاك أن يقال إن حياته تعرضت لمتاعب الغلاء ، فهو كما كان يعيش في أيام الرخاء ، وإن كلفه ذلك غم القلب وهموم الديون

ما هذه الملابس الجديدة في زمن ليس فيه جديد غير دماء القتال ؟ وما هذه العطور والمسايق والأزياء في أيام لا يتعطر فيها الجو بغير جثث المحاربين ؟

لو راعى الناس أنهم يعيشون في زمن حرب تخففوا من بعض المطالب لاعتدت أسعار الحاجيات وارتفع كرب الغلاء ، ولكنهم لجهلهم يأبون الاعتراف بمكاره الحرب ، ويعصرون على الظهور بمظهر الوجاهة في كل مجتمع وفي كل ناد

هل عندك أبناء وبنات يتعلمون في المدارس ؟ لك الله ، إن كان هذا حالك ، فلن تستطيع أن تمنع ابنك أو بنتك أن الدنيا في حرب وكر ، لأن هذا الإنقاع لن يتيسر إلا إذا عُقد مؤتمر من آباء التلاميذ يقررون فيه الاستثناء من الفضول في الملابس والأزياء ، ولن يُعقد المؤتمر النشود

إلا إذا وُجد في آباء التلاميذ من يجرؤ على القول بأن أعوام الحرب صيرته خفيف الجلب

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس !

قَدِمَ مندوب المتجر الفلاني إلى المدرسة الفلانية وأخذ مَقاس جميع التلميذات بدون استئذان ليعدهن ثياب الصيف ، وهو موثق بأن لن يكون في مقدور تلميذة أن ترفض ثوبها « يوم الحساب » لئلا يقال إن أباه من الفقراء !

فأشأن المتجر الفلاني بالمدرسة الفلانية ؟

وما الذي يوجب أن تكون ملابس جميع التلميذات كأسنان الشُط في اللون والاستواء . وقد نَوَّع الله الوجوه واللامع أغرب التنويع ؟

أفي مثل هذه الأيام نعرف الفروق بين ملابس الصيف وملابس الشتاء ؟

كان الظن أن يعرف نظار وناظرات بعض المدارس أن في الآباء من لم يستفد من فرص الحرب ، كما استفاد من سيكونون طعام سكر من التجار الشهومين

وكان الظن بالأغنياء الذين يدللون أبناءهم أن يتذكروا أن لأبنائهم رفاقاً لا يملكون من الترف ما يملكون ، وأن الأدب مع الله يفرض علينا أن نستريح نعم الله ، فلا نجأ في كل لحظة بأننا أغنياء ، لنكدر عيش الفقراء

وآه ثم آه من بلاء الناس بالناس !

الظواهر لا تشغل الخلائق إلا حين يُجرّمون جمال المعاني والمفاضلة بين تلميذ وتلميذ في هذا العصر مفاضلة بين ثوب وثوب ، وليست مفاضلة بين عقل وعقل ، ولهذا كثرت خيبة التلاميذ النجباء !

ما لي ولهذا الكلام المزعج ؟

هو كلام ساقه جزعي من المعجز عن ادخار درهم واحد في مدى شهرين ، بسبب الجو الذي يحيط بي وبأبنائي ، جو الزخرف الذي يحيا فيه الأصحاب والجيران

كنت أوصي تلاميذي في مصر وفي العراق بالادخار ، وكنت أقول لهم إن الادخار هو الذي منحتني الفرصة لإتمام دراستي العالية في باريس ، بمد توفيق الله . واليوم يصعب علي أن أوصي أبنائي بما كنت أوصي به تلاميذي . وكيف يسمع أبنائي ما أقول ومن حولهم خلائق محزونين تأديبها الزمان ؟

الخصوصية ، فتي نشق بكفاية الدروس المدرسية ؟
وما قيمة المدرس الذي لا يفتح عقل تلميذه إلا إن خاطبه
لسان إلى لسان ؟ بين أربعة جدران ؟
أعوذ بالله من بلاء الناس بالناس !

ملك الشط والفرائين في ضيافة النيل

من مزايا مجلة « الرسالة » أنها تسكت عن الأشخاص
ليكون إلتفاتنا كله إلى المعاني ، وذلك هو السر في عدم اهتمامها
بالأخباريات المتصلة بالأشخاص

قلت لنفسى : ولكن في الأشخاص من يكونون رموزاً
للمعاني ، فما الذي يمنع من أن أقول على صفحات الرسالة : أهلاً
وسهلاً ومرحباً بملك الشط والفرائين !

كانوا يسمونه الملك الطفل ، فسميته الملك الشبل ، جعله الله
أكرم الأشبال !

و « ملك الشط والفرائين » لقبٌ جميل صاغه شاعرنا
شوقي في القصيدة الذي يقنيه محمد عبد الوهاب في تحية فيصل
الأول . والشط هو شط العرب ، والفرائين : دجلة والفرات ...
ولو كانت الأقدار سمحت بأن يزور شوقي ديار « الشط والفرائين »
لجاد شعره بأطياب لا يجود بمثله الخيال

وهل كان شوقي يشعر بقيمة المبدأ الذي رسمه حين جعل
ملك العراق ملك الشط والفرائين ؟

ما أعرب ما سمعت في بغداد سنة ١٩٣٨
سمعت أن العراقيين دعوا « الملك فيصل الأول » إلى الاحتفاظ
بالموصل في المؤتمر الذي عقدوه في « الصليخ » ، فما الصليخ ؟
هو مكان في ضواحي بغداد مرت به لحظة تاريخية . وقد ذرته
زيارة الطيف في ليلة شاتية لأنتم الجو الذي قيل فيه بحضرة
فيصل الأول : إن العراق لا يستغنى عن الموصل بأي حال

ثم ذرت الموصل الذي لا يجوز عنه الاستغناء فهاهي أن أرى
روحانيات مختلفات ، وعز على أن يكون الموصل مما يدخل
في الحساب عند تقسيم المعاني ، مع أنه كان ولا يزال ولن يزال
من صميم الأرومة العربية

وقد ذرت الشط ، شط العرب ، بعد أن شهدت العراك
الذي دار في مجلس النواب العراقي حول معاهدة الحدود

وأصغيت بأذني وبقلبي إلى الصوت الذي قال : من غفلة
العرب أن يفسوا الأهواز ، مع أنها لحق بالظف من فلسطين

إن عدوى الترف سريعة الإيداء ، فلتحترس من شرها
كل الاحتراس

وكيف نحترس وليس في الدنيا طفلٌ يعرف أن أباه لا يبخل
عليه بالترف إلا ليُدخِر له ما ينفع في الأيام المقبلة ؟
إن أبناءنا لا يريدون أن نعلمن على سلامتهم من الوجهة
الروحية ، وإلا فكيف جاز أن تكثر رغبتهم في الزخارف وثقل
رغبتهم في الحقائق ؟

عفا الله عنهم ، فهم نحميا بلاء الناس بالناس !
إن حال الرجال من هذه الناحية مقبول ، فما أذكر أني رأيت
مدرساً أو مفتشاً يهتم بملابسه اهتماماً يوجب الاعتراض ، وإنما
الحال المزعج هو حال بعض المدرسات والمفتشات ، حال الفساتين
التي لا تجاوز الركبتين ، حال الزينة التي تنافى وقار التعليم ، وكان
مهنة الأنبياء

وفي إحدى المدارس رأيت مدرسة ضنت على نفسها بالزينة
الزخرفية ، فزاد إيماني بمظلمة بلادي ، وأيقنت أن « ربة البيت »
بمخير وعافية ، وأن مصر في أمان من طغيان الحسran
عندنا مدرّسات حقاً وصدقاً ، مدرّسات يتحلين بالعلم
لا بالزينة ، وبفضل أمثال هؤلاء المدرسات سنبليغ من تعليم
البنات ما نريد

المدرسات المصريات في هذا العهد يجاهدن بصدق للتغلب
على السخف الذي جلبه الجانب الضعيف من الدنية العربية ،
ويحاولن بصدق أن يكن مدرّسات لا وصيفات

وقد صار من المألوف أن نجد مدرّسات يقهرنك قهراً على
بذل تحية التعظيم والتبجيل ، وهي تحية أكرم وأشرف من
تحية الحسن المجلوب

وأرجو أن يفهم القارى أن كلامي هذا لا يراد به الإيحاء ،
فما هو إلا صدق في صدق ، بعد ملاحظات ومشاهدات جعلتني
من المطمئنين إلى صحة ما أقول
وأنا مع هذا مزعج مما صرنا إليه في مدارس البنات
ومدارس البنين

هل عندنا مدرسة توصي تلاميذها بأن لا يكلفوا آبائهم
ما لا يطاق ؟

هل عندنا مدرسة تفكر في أن تكون من الأسندة للجيوت ؟
الطيف لا ينجح بفتوق إلا إذا أمذته القادير بالدروس

من تهاون المصريين في المجاملات الإخوانية
أقول هذا لأعتذر لفخامة السيد جميل المدفني ، راجياً
أن أراه في فرصة قريبة بالقاهرة أو بغداد .

زيارة سياسية ١

ضاق الوقت عن التشرف بمقابلة صاحب الجلالة فيصل الثاني ،
وكنيت أحب أن أعرف للدواعي لزيارته الكريمة ، فقد سمعت
ناساً يقولون إنها زيارة سياسية ١

نعم إن شاء الله ويمش فيصّل الثاني إلى أن يتولى
السلطة الدستورية وتُصبَّح كل أسفاره بالصبغة السياسية .

أما زيارة اليوم فهي زيارة ملك ناشئ لا يرى غير الورود والرياحين
وأنا مع هذا موقن بأن زيارته لمصر زيارة سياسية ، فقد أبدع

بروحه اللطيف جاذبية أخوية تزيد ما بين مصر والمراق من صلات
السياسة ليست مقصورة على النظر في المنافع العاجلة أو الآجلة

في حيوات الشعوب ، فهناك سياسة أعظم وأرفع ، وهي سياسة
الحب والوداد . والملك فيصل الثاني يسمع من أخبار مصر ما يسمع ،

ويقراً من مؤلفات رجالها ما يقرأ ، فكان من الواجب أن يراها
بمعينه ليحس روحها بأوفي وأصدق ما يكون الإحساس

انتظروا قليلاً ، فسترون يوماً أن هذا الملك الناشئ قدّرن
في مذكراته البسيطة أشياء ، فمن المؤكد أن صدره فاض بالجدل

والارتياح والاعتباط حين رأى أن لغة العرب لها مدينة مثل
القاهرة ، ومن المؤكد أنه اطمأن على مصير العروبة حين رأى

أن اشتباك المصالح الدولية لم يزعج القاهرة عن خطتها العربية
وهنا أقول إنه يجب على كل عربي أن يزور القاهرة وأن

يرى ما فيها من المدارس والمعاهد والكتليات

عاصمة مصر هي العاصمة الأولى في الشرق ، وهي في الحضارة
والمدينة أعظم من استانبول ، وهي أبقى على الزمن من أخطار حواضر

اليابان ، فقد نجانا الله من أهوال الزلازل والبراكين ، وأنعم على
بلادنا بوفاء النيل ، وأعاننا على كبس ما فطر عليه من الطغيان

ومصر التي هدت الإنسانية إلى حقائق لم يعرفها الغرب
إلا بعد أجيال وأجيال ستظل على الدهر وطن الابتكار والابتداع

في أكثر الميادين . وهل نطق ناطق بحقيقة علمية أو أدبية
أو فلسفية إلا وهو مدين لآبائنا الأولين ؟

عنا أخذ الكفر وعنا أخذ الإيمان ، فما كفر كافر ولا آمن
مؤمن بدون أن يكون لنا في عقله وقلبه ديون فقال

لقد نفضت يدي من السياسة بعد أن آذنتي في وطني .
فكيف جاز أن ألتفت إلى السياسة يوم كنت ضيف العراق ؟
هي سياسة روحية تشبه السياسة التي تساور قلبي حين أزور
دمياط وأرى المصراع الذي انتهى إليه « جامع الفتح » وهو

المسجد الثاني في مصر بعد مسجد عمرو بن العاص

دعوت سادن جامع الفتح صرة ومرات فما أجاب ؟ وأين
السادن لمسجد لانهم به لجنة الآثار العربية ولا وزارة الأوقاف ؟

ليتني سليت ركعتين على باب ذلك المسجد ، وليتني نيممت
بما على جدرانها من تراب !

لقد زرت في دمياط مشاهد يجهلها الدكتور على مصطفى
مشرفة ويجهلها الأستاذ عبده حسن الزيات ، زرت البلد الذي

تحدثت عنه في كتاب « التصوف الإسلامي » قبل أن أراه ،
لأرفع عن عقلي بعض ما يثقله من أوزار الجهل !

وأين من يعرف حقيقة ما أرويه في هذا الحديث ؟

دمياط صورة من البصرة والبصرة صورة من دمياط

الطريق إلى هاتين المدينتين مخفوف بالذخيل ، وكتاتهما ملتقى
للماء المذنب والماء الأجاج ، مع فروق أوجها بعد البصرة من

دمياط ، وكلا البلدين مغمور مخوف ، فما يمشي المراق بدون أمان
البصرة ، ولا تمشي مصر بدون أمان دمياط

هذه السياسة الروحية تزلزل روعي ، فلي في كل بلد آلام
 وآمال ، وأنا أجول جولات روحية بكل ما أحب من البلاد

في كل مساء ، وكأنني أجول في شارع فؤاد . وهل يوجد في أية
مدينة شارع له جاذبية شارع فؤاد ؟

بالغمم متى أن يكون حظي من المرور بذلك الشارع شبيهاً
بمرور الطيف على ديار الأحباب

رشارع فؤاد هو طريق إلى المفوضية العراقية ، فهل سمح
الوقت بأن أزور فخامة السيد جميل المدفني وكان رئيس الوزراء

حين كنت من الذين يتشرفون بخدمة العلم والأدب في العراق ؟
المصري الصادق في خدمة وطنه لا يجد وقتاً لأداء حقوق

المجاملات ، لأن الشواغل عندنا تفوق الوصف ، ولأن في حياتنا
متاهب لا يمانى مثلها أحد في سائر البلاد العربية

إذا وفد إلى مصر زائر كريم تلفت عساه يرى من يخفون
لتحيته من المصريين ، ثم تكون النتيجة أن لا يرى غير آحاد

من الذين تسمح أوقاتهم بتحية الضيوف ، فينصرف وهو متمجب